٢٨ الإمام الليث بن سعد مبتدع أدب الحوار

فى قرية متواضعة من قرى دلتا النيل تسمى «قَلْقَشَنْدَة»، من أعمال محافظة القليوبية الآن، وتبعد عن القاهرة بما لايزيد على العشرين كيلو متراً. . ولد الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه سنة ثلاث وتسعين من الهجرة. حيث قُدرٌ لهذا الوليد أن يفتح عينيه على غنى وثراء غير عادى لأبيه، الذى كان يملك مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية التى تدر عليه الكثير من المحاصيل والفواكه. ولهذا نشأ هذا الطفل فى بحبوحة من الرزق، وسعة من المال، إلى جانب هذا التزام الأسرة بالمحافظة على تعاليم الإسلام، ومنها أن يعم خيرها ورزقها على الناس، بحيث يكون هذا الخير وذاك الرزق فيه النفع للجميع.

ولعل ذلك جميعه جعل والده لايضن على الفتى بالتعليم، فلا يقتصر تعليمه على ما يتلقاه من قراءات بسيطة فى إقليمه، وإنما يرسله إلى أكبر دور العلم فى زمانه، جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، حيث كان يعج وقتئذ بالعلماء والفقهاء، ومن بينهم التابعون، وتابعو التابعين. حتى يتلقى الفَتَى علماً وفقهاً على أيدى أعلم أهل زمانه.

كان العلم وقتئذ ينقسم فى جملته وتفصيله بين رجلين: رجل يتمسك بنصوص القرآن والسنة، ويفتى فى أمور الدنيا بما يجد فى هذين المصدرين من نصوص تنطبق تماماً على ما يريد، فإن لم يجد آثَرَ السلامة بعدم الافتاء فى شىء. ورجل آخر كان يقرأ الكتاب والسنة ويتدبرهما تماماً، وبعد ذلك يجتهد حين كانت تواجهه أمور مستحدثة فى بيئة جديدة غير البيئة التى ظهر فيها الإسلام ونشأ، وحالات طارئة لم

تكن من قبل، هنا كان على هذا الرجل أن يجتهد قياساً على ما جاء فى القرآن والسنة.

طبيعى أن يلحظ الفتى ذلك ويتأمله. ليخرج بنتيجة على قدر كبير من الأهمية، مؤداها أن المتمسكين بالنصوص لا يخرجون عنها، حيث يتشددون تشدداً قد يستحيل معه مواجهة مطالب الحياة المستحدثه التى لم يرد فى حكمها نص قطعىّ. وأصحاب الرأى والاجتهاد يتساهلون تساهلاً قد يدعو أحياناً إلى الخطأ فى الحكم، أو إحداث الاضطراب فى الفتيا.

وهنا رأى طالب العلم الليث بن سعد أن يستقل بالنظر الخاص به، انطلاقاً من واقع الحال الذى يعلن عن أن المتشددين بالنصوص يعتمدون على الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[1] وهذا أمر حق.

وأن أصحاب الرأى والاجتهاد يقولون: إن الرسول ﷺ قد اجتهد، وصحابته اجتهدوا فى حياته، وهذا حق أيضاً.

هنا سأل طالب العلم الليث بن سعد نفسه: إذَنْ لمادا الغُلُوُّ فى الاقتصار على النص أو الاعتماد على الرأى؟ خصوصاً وقد تبين أن النصوص ليست ظاهراً فحسب، أو كلمات فقط، بل هى روح، ولها دلالات وعلل ومعان. والإنسان قد شرفه الله عز وجل بنعمه التفكير، فعليه أن يفكر ويتدبر، ويتأمل أسرارالكلمات، ظاهرها وباطنها. ولن يتأتى ذلك إلا للذين يتقنون اللغة العربية، ويقفون على أسرار بلاغتها. وهنا يستطيع الواحد منهم أن يدرك ويفهم ما تهدف إليه النصوص من ناحية، وتعنى به فى ظاهرها وباطنها من ناحية أخرى، ثم إن للأحاديث تفسيرات كثيرةً لما جاء به القرآن الكريم، وتفصيلاً لما أجمله هذا الكتاب، وتبياناً لما خفى منه على المدارك والعقول من ناحية أخرى.

لذلك كله رأى الليث بن سعد أن يتخذ له مذهباً وسطاً بين أهل النصوص،

---

(١) سورة النساء ـ من الآية الثالثة والثمانين.

وأهل الرأى والاجتهاد، وأخذ يذيع عنه هذا المذهب بين زملائه من طلاب العلم فى جامع عمرو بن العاص، فى مواجهة الشيوخ الذين يمثلون الاتجاهين معاً.

والتفت الطلاب حوله، وكان من العجيب أن يُحَدِّثَ هذا الشاب وهو فى مقتبل العمر، حيث لم يصل بعد إلى سن العشرين. والأكثر أن يحدث أكثر من هذا، حيث بدأ الناس يستفتونه ـ ثقة فيه ـ فيفتيهم، ويرضون عن فتياه.

حتى إذا خرج للحج والعمرة، وزار المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والتقى هناك بعلماء الإسلام وفقهائه الوافدين للحج من كل حدب وصوب فى الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وتبادل معهم الرأى والمشورة، عندئذٍ تبين له أنه على صواب فيما هو يفكر فيه، فالإسلام يجل العقل، ويقدر منجزاته.

وفى الحجاز يلتقى بالإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، وتبدأ بينهما علاقة فكرية لم تنته إلى آخر أيام حياتهما، فقد كانا فى عمرين متقاربين، إلى جانب أنهما كان يتلمسان حثيثاً الطريق إلى العلم والتفقه فى الدين، الليث بن سعد فى مصر، ومالك بن أنس فى الحجاز.

ويعود «الليث» إلى مصر، ويبنى داراً كبيرة بالفسطاط بجوار مسجد عمرو بن العاص، وكان لهذه الدار نحو عشرين باباً، ملأ غرفها الكثيرة بكل ما استطاع أن يصل إليه من خيرات الدنيا، إلى جانب الكتب، وفتح هذه الدار لطلاب العلم وأصحاب الحاجات والفقراء والمساكين. وكان يقوم الليل إلا قليلا، حتى إذا أقبل الفجر خرج على فرسه إلى مسجد عمرو بن العاص لحضور الحلقات وحفظ الدروس. وبعد أن يفرغ من درسه وبحثه، وصلاته وعبادته كان يرجع إلى عمله ليظل مستغرقا فيه حتى إذا أقبل العصر ارتدى أجمل ثيابه وتعطر وتطيب، ومشى فى الحدائق والأسواق مستمتعاً ما شاء له الاستمتاع حتي يرجع إلى داره ليجد مَنْ يستفتيه فى أمر دينه فيفتيه. وهكذا كانت حياته موزعة بين العمل والعبادة، والدرس والفتيا.

وسمع إمام المدينة مالك بن أنس بما يصنعه صديقه إمام أهل مصر الليث بن سعد، فكتب إليه رسالة يعاتبه فيها ويرد عليه فى رسالة مماثلة. والرسالتان تشتملان على آراء ومواقف مختلفة فى أمور عديدة بين هذين العالمين الجليلين،

لكن على الرغم من ذلك فقد جاءتا آية مشرقة من آيات الحوار العف، الذى يحتاج إليه فكرنا الدينى فى ـ كل زمان ومكان.

وحسبنا أن نجتزئ من الرسالتين اللتين سجلهما ابن القيم الجوزية فى كتابه «أعلام الموقعين» بعض العبارات القصيرة، التى تكشف لنا عن هذا الأدب الرفيع بين العلماء، والذى نعرفه اليوم بأدب الحوار.

من جملة ما كتب الإمام مالك للإمام الليث بن سعد: «بلغنى أنك تأكل الرُّفَاق وتلبس الرِّقاق، وتمشى فى الأسواق».. فرد عليه الإمام الليث بقوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1].

ثم يرد إمام مصر الليث بن سعد على إمام دار الهجرة مالك بن أنس على بعض ما أثاره من مسائل فقهية كان قد أفتى بها فى مصر، فيقول الإمام الليث: وإنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإنى يحق علىَّ الخوف على نفسي، لاعتماد مَنْ قِبَلِي على ما أفتيتهم به. وإن الناس تبعٌ لأهل المدينة، التى إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع منى الموقع الذى تحب. وما أجد أحداً ينسب إليه. العلم أكره لشواذ الفتيا، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مَضَوْا، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى، والحمد لله رب العالمين لا شريك له».

ثم يذكر الإمام الليث الإمام مالك باجتهاد الصحابة، حيث تفرقوا فى الأمصار، فيقول: «وأمَّا ما ذكرت من قول الله تعالى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾[2] فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى

(١) سورة الأعراف ـ من الآية الثانية والثلاثين.
(٢) سورة التوبة ـ من الآية المائة.

الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه، ولم يكتموهم شيئاً علموه. وكان فى كل جند منهم طائفة، يعلمون لله كتاب الله وسنة نبيه، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة».

كذلك يذكِّره باختلاف التابعين وأتْبَاعِهم، فيقول: «ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ، ومنهم سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف. ثم اختلف الذين كانوا بعدهم، فحضرتهم بالمدينة وغيرها، ورأسهم يومئذ ابن شهاب، وربيعة بن أبى عبد الرحمٰن».

كما يذكره باختلاف هذين التابعين لأستاذهما: «وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت، وحضرت وسمعت قولك فيه، وقول ذوى الرأى من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغير كثير ممن هو أسن منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه. وذاكرتك أنت، وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة بن أبى عبد الرحمٰن من ذلك، فكنتما من الموافقين تكرهان منه ما أكره...».

إلى آخر هذه الرسالة المهذبة التى اشتملت فى الوقت نفسه على رد مقنع للإمام الليث على ما جاءت به رسالة الإمام مالك من مسائل ناقشها ورد عليها.

وفى رسالة الإمام مالك ما يشير إلى أن الإمام الليث يستمتع بطيبات الحياة: «بلغنى أنك تأكل الرفاق، وتلبس الرقاق...» وإذا كان الأمر كذلك فهو لم يستمتع وحده بهذه الطيبات، فقد كان يوزع المال والطعام والثياب على أهل العلم، وكل مَنْ يعرف أنه صاحب حاجة، فكان يطعم فى اليوم ثلثمائة من الفقراء والمساكين، غير الأهل والأصدقاء. وإذا جاءه خراج مزارعه كان يجلس أمام داره. وقد جعل المال فى صرر حتى يوزعها جميعاً.

ومن أجل ذلك نادَى بأنه ليس من حق أحد أن يحتفظ بمال إلا إذا ابلغ الناس حد الكفاية. إذ لايستحب وقد لا يجوز أن يكون هناك أغنياء مُتْرَفُونَ فى الإسلام يجاورهم فقراء مُعْدَمُون لا يجدون حتى ما يسد أقواتهم.

وسمع الخليفة العباسى المنصور عن الإمام الليث، فاستدعاه إلى العراق. وكان لهذا الخليفة ولع كبير بالعلم والأدب، برغم ما كان يحيط به من من بطانة السوء، فناظره المنصور، وأعجب به، وعرض عليه ولاية مصر، ولكن الإمام الليث ـ وقد نذر نفسه للتفرغ للعلم ـ اعتذر بلباقة جعلت المنصور يقول له: «لقد أعجبتنى.. أكثر الله فى الرعية من أمثالك». ونصح علماء العراق أن يذهبوا إليه ويأخذوا عنه.

وحين قام أحد الولاة فى مصر بهدم الكنائس إعترض عليه الإمام الليث بأن هذا ليس من تعاليم ديننا الإسلامى. وطلب منه أن يكف فوراً عن ذلك. ولما رفض الوالى كتب الإمام الليث لأمير المؤمنين بالعراق طالباً عزل هذا الوالى، لأنه فى حكم الإسلام متبرع لأمر يخالف به الإسلام، فعزله أمير المؤمنين.

وفيما يروى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد جرى بينه وبين زوجته زبيدة حديثاً قال فيه: «أنت طالق إنْ لم أدخل الجنة»، وندم على ما فعل، وجمع فقهاء ـ العراق والحجاز لحل هذه المشكلة فعجزوا، فاستدعى من مصر الإمام الليث، وطلب منه الإمام أن يحضر مصحفاً ففعل الرشيد. وقال له الإمام: «تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها» ففعل الرشيد، حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال الإمام الليث: «امسك يا أمير المؤمنين وقل: إنى أخاف مقام ربى» فقال الرشيد ذلك. وهنا قال الإمام الليث: «هما جنتان يا أمير المؤمنين وليست بجنة واحدة» فقال الرشيد: «أحسنت والله» هكذا عاش الإمام الليث بن سعد حياة عريضة فيها تعلم وعلم، أخذ وأعطى، قرأ وكتب.. ولم ينقطع يوماً واحداً عن حلقته بمسجد عمرو بن العاص.. حتى بلغ الثانية والثمانين.. عندها فارق الحياة. بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس.

ودفن فى المكان المقام عليه مسجده فى شارع الإمام الليث بالقاهرة. وكان قبره كالمصطبة .وفيما يذكر المقريزي بخططه: أن قبر الليث كان مصطبةكتب عليها ما نصه: «هنا الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد، رضى الله عنه، مفتى أهل مصر»

* * *